# رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التى يراها القارئ بعد مظهر واضح جلى من مظاهر التطور الذى أتيح للنثر العربى ، وتم تمامه على يد الجاحظ فى القرن الثالث للهجرة ؛ إذ اقتحم على الشعر أبوابه ، وشاركه فى ميادينه ، وجعل ينافسه عليها منافسة قوية رائعة . وقد ظل الشعر زماناً مستأثراً بالمعانى الفنية ، منفرداً بالتعبير عنها ؛ إذ كان اللغة الفنائية الوحيدة التى يتغنى بها الرجل فى آلامه وآماله ، وفى حبه وبغضائه ، وفى نشواته العصيبة المختلفة ، لا تشركها فى ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور ، وكيف انتهى إلى غايته ؛ فلسنا هنا إلا بصدد التقدمة لهذه الرسالة ، والاشارة إلى بعض وجوه الخطر التى تمثلها — هى ونظائرها — فى تاريخ « العبارة الفنية » فى اللغة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ أن ينقل موضوعات الشعر إلى النثر ، وأن يتيح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقا أرحب ، وعبارة أسمح ، وتجاوبا مع النفس العربية الجديدة — التى صقلتها الحضارة وأرهفها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربى حين لم تعد تكفيه وتقنع رغباته الواسعة تلك المعانى المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر عنه ، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من « العبارة الفنية » المتوسطة بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتصطنع خصائصهما ، على النحو الذى نراه فى هذه الرسالة التى كتبها فى « رثاء » صديق له .

والرثاء فن شعرى ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولكن الرثاء فى هذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه فى قصائد الشعراء . فهو يجئ هنا فى سياق صورة مفصلة لشاب اخترم فى عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ « الموت » فى جميع حالاته وملابساته ، منذ أخذت بوادره تتدسس عليه إلى أن غيب فى قبره . ومن ذلك كانت إثارته « الحزن » بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهى تنطوى بطبيعتها على العناصر الأصيلة للحزن . أما رثاء الشعراء فهو — فى كثير من حالاته — أشبه شئ بندب النوادب ونواح النوائح ، وكذلك ما يثيره من الحزن ، إنما يجئ من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء فى الشعر ، فى ناحية « التأبين » أو تمجيد الميت . فالجاحظ إنما يصور مآثره وفضائله فى خلال تلك الصور ، فيجئ بها متسلبة ، اتشحت بالحداد والتفت بالسواد ، لا مستقلة منتزعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن — كثيراً — فى الشعر ، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر حاضرة ، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة المضى .

وقد أخذنا هذه الرسالة من كتاب : « المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ » ، وهو مخطوط محفوظ فى مكتبة برلين . وقد وردت فيه غير معنونة ، كما هو الشأن فى محتويات هذا الكتاب ، وقد تكون هى الرسالة التى يذكرها ياقوت فى فهرست كتب الجاحظ باسم : « رسالة فى موت أبي حرب الصفار البصرى » .

وها هى ذى ، بعد أن صححنا نصها جهد الطاقة . وقدر ما تأذن الروح العلمية فى النشر والتصحيح .

طه الحاجرى

ورد علىّ — أسعدك الله — كتابك ، تذكر فيه بُرءك من شكوك ، وتستريبنى فى ترك الكتاب إليك ، وأنت غافل عما جرت به الأقدار ، وأصاب به الدهر ، وقرعت به المنون ، وطرقت به الحوادث . ولم أبطئ بكتابى عنك — أكرمك الله يا أخى — إغفالا لحقك ، ولا قلّة منازعة من نفسى لمحاورتك ؛ ولكنه شغل البال ، وريب الحدثان ، وتقلب الأزمان . فإنى قد أصبحت كما قال الشاعر :

لم يترك الدهر لى علقاً أضنّ به إلا اصطفاه بموت أو بهجران

وقد هاجنى على الكتاب إليك معتلجات الهموم ، مبثّا لك بعض ما فى صدرى ، استراحة المكروب ، ونفث المصدور ؛ فقد أصبحت رصداً للمهلك ، وبمدرجة العطب ، وبمشرب السموم ، وبحسى الموت . وأحسب هلك أبى فلان — رحمة الله عليه ورضوانه ، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى لديه — قد نمى إليك وبلغك . وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ تأدّباً بأمره ، وتعرّضاً لموعوده . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد رأيت تعريفك كُنه خبره ، فافهم — رحمك الله — واجتهد فى أن تكون السعيد الموعوظ بغيره .

وقد كنت عاينت شكوه ، وفارقته عليه فى غرة شهر رمضان . ثم تزيد فى جهد العلة وفى حدتها ، وكان اليأس منه والخوف عليه ، أقوى من الرجاء له والطمع فى سلامته . ثم انحدرت العلة ، وأطمع فى الإفاقة ، وتزيد فى الإطماع ، وتحلل السقم وشدة المرض ، واستبشر مؤملوه العافية له ببرئه . فلم يزل يتزيد فى صلاح الحال ، ورجوع القوى ؛ حتى إذا أكل ما اشتهى ، وركب ومشى ، وخرج إلى البستان ، وثابت نفوسنا من الإشفاق ، وزال

عنه القلَق والحِذَارُ ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لى فى بعض مناجاته ، واستجلابه العافية ، واستلذاذه مُعاودة الصّحة : « إخالُنى قد نجَوت ، وأرانى قد أقلبت » مبتهجاً مسروراً ، كما قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به خال أنّه نجا ، وبه الداء الذى هوَ قاتِلُهْ

على أنه — يرحمُه الله — فى ذلك كَمِد اللون ، نحيف الجسم ، مضطرب المِزاج ، متغيِّر عن الاعتدال ، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده ، ويجلس بفنائه .

ثم تغيّرت به العلة ؛ فدخلتُ عليه ، فاذا نفسُه قوية ، وطبيعته جيّدة ، وعلّته غير منكرة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قوىّ الرجاء ، بغير انكساف بالٍ ، ولا وَجلٍ من وَشْك ارتحال . وظلّ يومَه ذلك على حاله من الصلاح . فلمّا أصبح دعا بسواكه ، فاستنّ به ، فبينا هو يمرّ بالسواك على ثغره أنكرت أمه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » ، فقال : « ما أدرى ! إنى لمنكرٌ نفسى . بادِرونى بالنزول » ، فبودِر به . فلما صار على الدَرَج منحدراً على قدَميه ، عنّ له الموت مُطِلاّ ، وطرَقه ما كان يهرُب منه طويلا ، وفاجأه الذى راغ منه مجتهداً ، وبغَته ما لم يجد عنه مَوْئِلا . فسقط سَقطة لم تكن بعدها إقالة ، فشخَص لها بصره ، واضْطربت جوارحه ؛ واحتُمِل إلى قرار منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدعاء ، ولا يحفل بالبكاء ؛ ولا يردّ الجواب ، ولا يعبأ بالأحباب . فدخلت عليه ، وهو كما قال مطيع بن إياس :

وينادونه ، وقد صمّ عنهم ثمّ قالوا — وللنساء نحيبُ — :
« ما الذى عاق أن تُحِير جوابا أيها المِقوَل الخطيب الأريبُ ؟ »

فبُعِث إلى أهل الطبّ والمعرفة ؛ فأتوا ، فرأوْا حالاً فاتت التلافى ، وخرجت من العِلاج ، وسبَقت الاستِدراك ؛ فعلّلوهم وانصرفوا ، ولم يقضوا فيه قضاء !

وهو فى ذلك مشغول بجهد نفسه ، وكَرْب غيره ، ونَزْعه وشدّة نَفَسه ، والموت يقبِضه ويبسُطه ، كالثوب عند الطىّ والنشر ، صَريعاً مُستسلماً ، أسيراً منجدِلا ، قد خذله الولَد والوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ما عندهم

الحسرة والتلهُّف ، والاستكانة والنشيج . فمكث يومه ذلك ؛ ثم حُمّ حمّى مُدْفِية ، وفاظ فى آخرها ، وورد حيث وُعِد ، وزهق الباطل . فعَجُّوا وضَجُّوا ، وهتفوا وولولوا . جَهدٌ لعمرك قليل الردّ .

ولَنْ يرجع الموتى حَنينُ المآتِمِ

فيالله معتبَطا ما أغضّ وأطرى ، وأىّ فتى رحل عنا ، كما قال الهُذَلىّ :

فِراقٌ كقَمْيصِ السِّنِّ ، فالصبرَ ، إنّه لكلِّ أناس عَثرة وجُبورُ

ثم دخلنا لنغسله ، وهو شِلْوٌ على سريره ، طريح على مُغْتَسَله ، لَقَى لوجهه ، تقلّبه الرجال بأكفّها ظهراً لبطن ، كما قال يزيدبن خذّاق :

ورجّلونى ، وما رُجِّلت من شَعَثٍ وألبسونى ثياباً غيرَ أخلاقِ
ورقّعونى . وقالوا : أيما رجل وأدْرَجونى كأنّى طىُّ مِخراقِ

ثم أخرج — والله — من طارفه وتليده صِفرا ؛ ولو ردّوه ما كان له فيه غِنًى ، ولا قُبِل عنه فدا . ثم أُدرِج فى لفائفه ، وحُمِل على نعشه ؛ ينقله إخوانه وخُلصانه ، وأحِبّاؤه وأصفياؤه ، وأنا أحدهم يا أبا محمد ؛ فما رأيت كذلك المنظَر منظرا ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندى عىّ ، فكيف بنا ونحن أهل خاصّته ومودته .

ولو رأيت أمّه البائسة مرفوعة الحجاب ، ظاهرةً للرجال ، قد عزّها الجزَع فما أبقى ، ورماها فما أشوَى ، وجلّ الخطب أن تتعزّى ، حَيْرى ثكلى ، أمّ واحد ، ومفجوعةٌ فاقِد ؛ لأنه — رحمه الله — كان من أشدّ الناس عليها حنوّا ، وألطفهم بها برّا ؛ حتى لو عددته لملأ الكتاب ، ولما استكثِر معه برّ طاق بن حَبيب ، ولا بر محمد بن طلحةَ السجّاد بأبيه .

ولو رأيت حُرَمه اللائى كان يستُرهن : من جارية نفيسة ، وأمة محبوسة ، وحُرمة مقصورة ؛ قد هتكن أستارهن ؛ وبدت خِدامهن ؛ كقوم حلّ بهم السِّباء ، وكُتب عليهم الجلاء ؛ كما قال الربيع بن زياد :

قد كن يخبأن الوجوه تستّراً فالآن حين برزن للنظّار

ولو رأيت ابنته بها ذلُّ اليُتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتَذلةً غير مصونة ، مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرةَ الوجه والقدَمين .

ولو رأيت أباه ، وإنّ دموعه لمراقة ، وإنّ يديه لترعد ، كأن به أفكلاً من شدّة الجزع ؛ فأما علّة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابرَ الأيام : ولو لم يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبرّ به .

ولو رأيت ابنَه لرأيت عَبرة لا ترقأ ، ودموعا لا تغيض ، سَخِين العَين ، حرّان الصدر ، فائض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يُخالِس دموعه ، ولا يتجلّد للشامتين .

ولو رأيت نَداماه ومُؤمِّليه حَيارى لا يدرون على أيّ خِلاله يأسفون . أعلى حُسن عِشرته وكرم مَجلِسه ، أم على طيب خلُقه وصدق صفاته ، أم على نجدته وشهامته ، أم على مُداراته ومُروءته ، أم على حِلمه ومودّته وأدبه .

وما رأيت سريرا شيّعه من المترحّم والباكي ، والمتفجّع والداعي ، والمؤبِّن والمُثْني ، ما صحبه ؛ حتى أسهل عليّ بعض الحزن ما سمعت من حسن الثنا ، وطيب النشا ؛ فمن باكٍ على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ، وامتلاء جسمه ، وحَداثة سنّه ؛ ومن مُلتَثّ بالحنين ، مكروب بالأسف ، مُشْجَى بالغصّه ، غصّان بسرعة الاختِرام ومعالجة المنية .

وما سمعت مُراجعاً خبرُه بعد موته في مثل سنّه ، أجمعَ لكلّ مكرُمة ، وآخَذَ لكل صالحة ، وأضمَّ لكلّ شاردة ، وأحفظ لكلّ ضائعة ، وأرعى لكلّ مُهمَلة ، وأضبط لكل منفلتة ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والأفعال النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فمضى .

كأنْ لم يقل يوماً مقالا فتَنْثَنى إلى قوله الأسماعُ وهي رَواغِمُ

ثم وُضع سريره بفِناء مسجد الوَصِيّ ، فصلّى عليه جعفر بن القاسم ، ومن حَضَره من النسّاك والعبّاد والأشراف ، تحفزهم علل غير واحدة ، أصغرها الرحمة له . ثم انطُلِق بنعشه الى حفرته ، خوّار العود ، قليل الامتناع ؛ كما قال مالك بن الريب :

خُذاني فجرّاني بُردى إليكما فقد كنتُ قبلَ اليوم صعباً قياديا

ثم نُضِدَ عليه اللَّبِن، وسُدّت خِلاله، وأهيل من جوانبه التراب، بعين الشفيق، ومحنة الوادّ، وحسرة الصديق، ومحضر الوامِق؛ ثم لم يلبثوا أن ودّعوه وانصرفوا.

وقال قائلُهم حَتّى مَتى نقفُ.

وأنا أقول قولا أخرج من النوح به، ولا أخشى الكذب من الإغراق فيه: لئن كانت المنايا جعلته غَرَضاً للانتِضال، لقد جعل القيامة غرضاً لصالح الأعمال. ولئن أصبح شمله مبدّدا مقسّما، لقد أصبح شمل حمده مجموعا. ولئن كان ابْتَكَرَهُ الإزعاج، لقد ابتكر الهِمَم الرفيعة بالانتهاز والابتدار. ولئن شُهر موتُه فى المِصر، لقد شهرت مَكارِمُه فى الجمع. ولئن خَفِى جسمه فى التراب، لقد خفِى نظيرُه فى الأرض. ولئن اعْتَبَطه الموت، لقد كان وُدّه لصديقه غضّا. ولئن واثبه الموت مُغافِصاً، لقد واثب المعالى مفترساً. ولئن انقطع أثرنا من زيارته، لقد بقى عندنا من أثر نعمته. ولئن كان على قلب الصديق خفيفاً، لقد كان على كاهل عدوّه ثقيلا. ولئن خربت مجالسنا من شخصه، لقد عَمَرت قلوبنا بذكره. ولئن انقطعت مَسائلُنا له، ما انقطعت مسائلنا فيه. ولئن بكيتُ عليه لأجدَنَّ مَبكىً، ولئن احتسبتُ لفى مثله يُحتسب.

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيتُه عليه، ولكنْ ساحةالصبر أوسعُ

ولئن قصُرت مدّة الإمتاع به، ما قصرت مدة الحزن فيه. ولئن ارتحلَ عنّا وَشيكا، لقد أثوى فى قوبنا الأسف طويلا. ولئن كان عرَّضنا للصبر بموته، لقد عرَّضنا للشكر بحياته. ولئن دَنوتُ من الناس بعده، وقَرُبتُ من جنابهم، تسلِّياً عن بعض الكمد، وتَنفيساً عن حَرارة الغَلَل، إنى فى ذلك لكما قال الأوّل:

فإن أغْشَ قوماً بعده أو أزورُهم فكالوَحْشِ يُدنيها من الأنسِ المَحْلُ

ولئن أشر الباغى، وفرح العَدوّ، وسُرَّ الحاسد، وطفر الشامت، وجذل المُبغِض، واسْتَبْشر القالى، ما تعزّينا فى ذلك إلا بقول عدىّ بن زيد:

أيها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ، أأنت المبرَّأ الموفورُ؟

ولئن تجلدت للشامتين ، وتزينتُ للعيون ، وأصلحتُ من شَعرى وثيابى ، وركوبى ولباسى ، فكما قال الأول :

وإنى ، وإن أظهرتُ صبراً وحِسبة       وصانعتُ أعدائى ، عليكَ لمُوجَعُ

ولئن رُمينا من الدهر بالجُلّى ، لقد سهُلت علينا مَؤونة الصغرى ؛ فنحن فى فقدنا له كما قال الأول :

وكنتُ أعيرُ الدمعَ قبلكَ مَن بكى       فأنتَ على من مات بعدَكَ شاغِلُهْ

ولئن قلت : إنه قص الجناح ، وجذَم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم الناب ، وحطم الصُّلب ، وفلَّ الحد ، وأوهن المُنّة ، وأضرَم الأحشاء ، وعقل اللسان ، وأهاج المتبلد ، وأعاش الحَيرة ، وأمات الذكاء ، ونزع الرغبة ، وأورث السلوة ، وبرَى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج الكآبة ، لأصْدُقَنَّ ، بل لأقصِّرن عن نهاية ما بلغ .

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله على نوائب الدّهر ، ومكاره الأيام ، ومَرارة العيش ، وتجرُّع الثكل ، واعتراض الشجا ؛ اصطبارا واستسلاما ، ورجوعاً الى أمر الله ، وتمسكا بمراشده .

فإن تكن الأيّام فرّقن بيننا       فقد بانَ محمودا أخى يوم ودَّعا

يا أبا محمد أصلحك الله ففيم التربص والانتظار ، وعلامَ الفَرْجة ؟ إنما الدنيا كأهل دار متى نَفَر أوّلهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الرَّكْبَ وُقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أوما تعلم أننا رهائن بأنفسنا ، فكيف لانسعى فى فكاكها ! أوَ ما تعلم أننا مُنتدبون لحَلْبة التشمير ، فما الوَنى والتأخير ! فنشدتك الله تعالى ونفسى فى التشدد والتخوف .

فما نحنُ إلا مِثلهم ، غيرَ أننا       أقمنا قليلا بعدَهم وترحَّلوا